دراسة تحليلية تطبيقية في مقاصد سورة التوبة وتداعياتها

أ.د. رقية طه العلواني

كلية الآداب – جامعة البحرين

ملخص الدراسة:

تتناول هذه الدراسة بعض آليات ووسائل الكشف عن مقاصد السور القرآنية مع بيان أهمية ذلك؛ كالاهتمام بالوقوف على أسماء السور، والنظر في البيئة والأجواء التي نزلت فيها السورة والكشف عن أبرز موضوعاتها ومحاورها، وأوجّه التناسبات بين السور المتحاورة وآياتها وغير ذلك. كما تتناول بالتطبيق لبعض هذه المسالك على سورة التوبة للتوصل إلى أن مقصود السورة الأساسي هو التوبة. الأمر الذي يدحض العديد من الشبهات المثارة حول سورة التوبة وغالب آياتها وخاصة ما اشتهر بآية السيف. وقد توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج منها: أهمية السير وفق الآليات والمسالك التي تسهم في التوصل إلى استنباط اجتهادي سديد لمقاصد السورة في ضوء مقاصد القرآن العظيم من التوحيد، التزكية والعمران. كما أكدت الدراسة أهمية مراجعة ما تداوله كثير من المفسرين في القديم والحديث حول مقاصد السور القرآنية وخاصة سورتي الأنفال والتوبة نظرا لما شاع حول السورتين من تأويلات مغالية منحرفة، أفسدت ظواهر الآيات فيهما الداعية إلى جهاد النفس والترقي بها وتحقيق زكاتها، ونشر قيم الإسلام وعدالته وسماحته واحترام كرامة الإنسان ضمن الحديث المتواصل عن القتال.

الكلمات المفتاحية: سورة التوبة، مقاصد السور القرآنية، آية السيف، التوبة.

Abstract:

Applied Analytical Study of Purposes and Implications of Sūrat At-Tawbah

This study examines certain mechanisms and means to reveal the purposes of the Qur'ānic Sūrahs and demonstrate the importance thereof, e.g. to give due consideration to the names of the Sūrahs, understand and recognize the surrounding circumstances and conditions of the revelation of the Sūrahs and detect their most prominent topics and axes etc. It also deals with the application of such paths to Sūrat At-Tawbah in order to reach the fact that the main purpose of this Sūrah is Repentance. This refutes many of the suspicions aroused about Sūrat At-Tawbah and its verses, especially that which is known as the Sword Verse

(*'Āyatussayf*). The study comes up with many results, including the importance of following the mechanisms and paths that contribute to reaching a correct discretionary inference of the purposes of the Sūrah in light of the general purposes of the Holy Qur'ān such as monotheism, self-purification and urbanism. The study also emphasizes the necessity of reviewing the deliberations and comments of many old and recent interpreters about the purposes of the Qur'ānic Sūrahs, especially those of Al-Anfāl and At-Tawbah Sūrahs, given the exaggerated and distorted interpretations of both Sūrahs. These interpretations corrupt the intended meanings of the verses which call man to struggle against his lower self, purify it and purge it of sins, and to promote the values of Islam such as justice, tolerance and respect for human dignity rather than to fight and force people to embrace Islam as alleged by such recurring groundless interpretations.

Keywords: At-Tawbah Sūrah, Purposes of the Qur'ānic Sūrahs, The Sword Verse, Repentance.

مقدمة:

تعتبر عملية الكشف عن مقاصد سُور القرآن الكريم من أبرز مداخل فهم رسالة القرآن فهي تشكّل المحور العام، الذي يستطيع المجتهد من خلاله قراءة النصوص وتفسيرها دون خروج عن هدي القرآن الكريم ومقاصده. من هنا اهتم العديد من المفسرين في القديم والحديث بدراسة مقاصد السور القرآنية أو ما أطلق عليه بعضهم الوحدة الموضوعية للسورة، واجتهد وأدلى كل منهم بدلوه. وهذا البحث يتناول دراسة لمقاصد سورة التوبة المباركة، وإبراز أثر الكشف عن تلك المقاصد في فهم مقصد التوبة الأساسي الذي جاءت السورة تحمله وتعلنه للخلق جميعا. كما تؤكد الدراسة دور الكشف عن مقاصد السور القرآنية في دحض الشبهات وردّها وخاصة فيما يتعلق بسورة التوبة التي اشتهر لدى الكثير، أنها تؤسس لقتال كل المخالفين للإسلام. وتوضّح الدراسة من خلال الكشف عن مقصد التوبة الأساسي للسورة أن تلك الأقوال تُناقض صريح العديد من الآيات التي جاءت تؤكد حرية الاعتقاد وسماحة الإسلام وبيان شروط القتال وحدوده ومقاصده .

إشكالية البحث:

تحاول هذه الورقة الإجابة على عدة تساؤلات؛ ماهو مفهوم مقاصد السُور القرآنية وما أثر الاهتمام بها؟ وما أبرز مسالك التعرف على تلك المقاصد؟ وما أثر تطبيق هذه المسالك في استنباط مقصد سورة التوبة المباركة وتسديد الاجتهاد في ذلك الاستنباط؟ وما هي الآثار المترتبة على إغفال مقصد سورة التوبة الأساسي في إثارة

شبهات حول هذه السورة وخاصة ما يُعرف بآية السيف، ومزاعم تبني القرآن لمبدأ العنف والإرغام على الدخول في الإسلام.

أهداف البحث:

تروم هذه الدراسة تأكيد أهمية الوقوف على مقاصد السُور القرآنية واستنباط تلك المقاصد من خلال اتباع مسالك وآليات معتبرة لدى العلماء والمجتهدين. الأمر الذي يمكن أن يُسهم في تسديد الاجتهاد في الكشف عن تلك المقاصد. كما تهدف إلى تفنيد الشبهات المثارة حول مقاصد سورة التوبة التي تدور غالبها حول القتال والإرغام على الدخول في الإسلام، ودحضها من خلال تطبيق مسالك استنباط مقاصد السُور القرآنية عمليًا على هذه السورة.

منهج البحث وخطته:

تبنت الدراسة المنهج التحليلي للتوصل إلى آليات استنباط مقاصد السور، خاصة وأن تحديد مقصد السورة أمر اجتهادي تختلف فيه العقول وتتفاوت فيه المدارك. وقد قُسمت الورقة إلى ثلاثة مباحث إضافة إلى المقدمة والخاتمة والتوصيات. المبحث الأول جاء فيه بيان مقاصد السور وأثرها وأهميتها، أما المبحث الثاني فخُصص للكشف عن مقاصد سورة التوبة، وكان المبحث الثالث للحديث عن الآثار المترتبة على إغفال مقصد التوبة في سورة التوبة.

وقد توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج منها: أهمية السير وفق الآليات والمسالك التي تسهم في التوصل إلى استنباط اجتهادي سديد لمقاصد السورة، كالاهتمام بأسماء السورة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، والبحث عن البيئة والظروف التي صاحبت تنّزل السورة، والكشف عن محاور السورة وموضوعاتها. ولا تنفي الدراسة وجود مسالك أخرى، إلا أنها تقف على هذه الآليات لتصل إلى أن مقصد سورة التوبة الجامع هو التوبة، التي تأكد ذكرها في السورة في كثير من الموضوعات والمواضع لبيان فتح باب التوبة أمام الخلق جميعا، ودور المؤمنين برسالة القرآن في حملها وتعزيز قيمها لإقامة نظام عالمي قائم على العدالة والكرامة الإنسانية. وأوضحت الدراسة أهمية هذا المقصد في الذبّ عن سماحة الإسلام وعدالة تشريعاته وإنسانيتها، ودحض الشبهات والأباطيل التي اعتمد أصحابها آليات بتر النصوص عن سياقاتها لتمرير تهمة إكراه الناس على الدخول في الإسلام تحت وطأة القتال.

الدراسات السابقة:

وقفت الدراسة على الكثير من الدراسات التي تناولت العديد من الدراسات في القديم والحديث مقاصد السور القرآنية [1]، ومقاصد سورة التوبة وأهدافها بشكل خاص. ومن أبرز الدراسات التي وقفت عليها الكاتبة: رسالة ماجستير للباحث حسن الخطيب في جامعة غزة (2008م) بعنوان: **أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة: دراسة تحليلية**. أكد الباحث فيها أن الجهاد وتحديد العلاقات مع غير المسلمين والبراءة كلها من أهم محاور السورة إلا أنها تدور حول موضوع واحد هو التوبة. ويرى الباحث أن السورة من أولها حتى آخرها، تهب نسمات التوبة من بين ثناياها، وختمت بتوبته سبحانه وتعالى على خير المخلوقات محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى الذين هيأ لهم الاستغفار وحسن الظن، فانتظروا فرجه وتوبته، ليبين أن كل أحدٍ بحاجة مغفرته، والتنصل من ذنوبهم، والولوج إليه من أوسع أبواب رحمته[2]. إلا أنه رغم ذكره لهذا في مقدمة البحث، إلا أنه لم يتحدث عن التوبة إلا في ثنايا جزئية بسيطة تتعلق بصفات المبايعين وتعريف التائبين[3]. وجاء تركيز الباحث في رسالته على مفاهيم الجهاد في السورة والقتال والبراءة من الكفار ولم يوضّح محور التوبة وكيف أنه جمع كل هذه المفاهيم تحت هذا المحور الذي أشار إليه في المقدمة فقط.

ومن الدراسات المعاصرة التي وقفت عليها الباحثة كذلك دراسة بعنوان: قراءة في آية الهجرة في سورة التوبة دراسة تحليلية للكاتب مروان الأعظمي[4]. حيث أوضح الكاتب أن من معاني الهجرة الترك والعلاقة بين الترك والهجر ترك الوطن إلى وطن آخر، وهي التغير من حال إلى حال فكان من المناسب جدا (حسب قول الكاتب) أن تأتي آية الهجرة في سورة التوبة، وفي هذا الموضع الذي وردت فيه تحديدًا. وكان الكاتب موفقًا في الربط إلا أنه

---

1 – من أمثلة هذه الدراسات: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي. دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي. الوحدة البنائية للقرآن المجيد، طه جابر العلواني. أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، عبدالله محمود شحاتة، *وغيرها كثير*.

2 – أهداف ومقاصد وموضوعات سورة التوبة دراسة تحليلية، حسن الخطيب، غزة: الجامعة الإسلامية، 2008م، ص 291. على الرابط الإلكتروني: http://88.99.240.100/aleman/library/messages/00410.pdf

3 = المرجع السابق، ص 251.

4 – قراءة في آية الهجرة في سورة التوبة دراسة تحليلية، مروان الأعظمي، مجلة الجامعة العراقية، العدد 26، 2011م، ص 15.

استطرد كثيرا في بيان معاني الهجرة ولم يوضّح الربط بين الهجرة والتوبة ووضعها في السورة إلا بشكل عابر في المقدمة وفي خاتمة البحث، رغم أهميتها في بحثه.

ولعلّ واحدة من أهم البحوث المتميزة التي وقفت عليها الكاتبة في هذا المجال؛ مواطن التوبة في سورة التوبة دراسة موضوعية، للباحثة إيناس فليح زبيدي[1]. أكدت الباحثة أن السورة جاءت لتفتح باب التوبة لجميع الناس حتى وهي تتحدث عن الكافرين والمنافقين، وتدعو المؤمنين للقتال لإلجاء المنافقين على التوبة وقتالهم لدفعهم إلى التوبة على حدّ قولها. ثم تتبعت الباحثة مواطن التوبة في السورة بشكل منهجي، إلا البعض منها: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. [التوبة: 3].

من هنا تأتي أهمية هذه الدراسة في محاولة تقديم إضافة نوعية من حيث البحث في المسالك والطرق التي ذكرها العلماء في مؤلفاتهم ومن ثم تطبيقها للتوصل إلى استنباط محور سورة التوبة، خاصة وأن غالب آياتها تعرضت للكثير من التأويلات المنحرفة التي وظفّها عدد من المتشددين في نشر فكرة انتشار الإسلام وتعاليمه بالقوة والعنف وإجبار الآخرين عليه.

المبحث الأول: مقاصد السور القرآنية وأثرها

حوى القرآن الكريم الكثير من المقاصد الكبرى وعلى رأسها هداية البشر إلى توحيد الله والإيمان به، وهي مقاصد مبثوثة في سُور القرآن وآياته. وليس المراد بمقاصد السور أن للسورة موضوعًا مستقلًا أو فصلًا في باب أو بحثًا في كتاب[2]. وإنما المقصود أن تنزل كل سورة لتحقيق أغراض ومقاصد معينة تنتظم في مقاصد سور القرآن العظيم قاطبة.

أولا: مفهوم مقاصد السور القرآنية وفوائد الاهتمام به

1 – مواطن التوبة في سورة التوبة دراسة موضوعية، م إيناس فليح خلاوي، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، المجلد الثاني، العدد السابع، 2010م

2– أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم ، عبدالله محمود شحاتة، مصر :الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976م، ص 7.

يراد بمقاصد القرآن؛ القضايا العامة والمحاور الكبرى الرئيسة التي جاء القرآن لتقريرها وعليه فمقاصد الشريعة جزء من مقاصد القرآن، وليست كل القرآن. أما مقاصد السور فهي جزء من مقاصد القرآن، إذ نزلت كل سورة من سوره لتحقيق تلك المقاصد الكبرى من هداية البشر إلى توحيد الله سبحانه وتزكية النفس والقيام بالخلافة على الأرض وعمارتها بالإيمان والعمل الصالح.

ولم يفرد غالب العلماء المتقدمين علم مقاصد السور بتأليف مستقل، بل جاء في ثنايا كتبهم في التفسير وعلوم القرآن مختلطًا بغيره كما هو الغالب في كثير من الموضوعات المماثلة. إلا أن الكثير من العلماء الأقدمين اهتموا ببيان الأهداف والمقاصد لسور القرآن الكريم، منهم الفيروزآبادي (817هـ) في بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز.

وممن اهتم بمقاصد السور البقاعي رحمه الله حيث يقول: "إن من عرف المراد من اسم السورة عرف مقصودها، ومن حقق المقصود منها عرف تناسب آيها وقصصها وجميع أجزائها... فإن كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها ويستدل عليه فيها؛ فترتب المقدمات الدالة عليه على أكمل وجه وأبدع منهج، وإذا كان فيها شيء يحتاج دليلا استدل عليه. وهكذا في دليل الدليل وهلم جرًا ثم قال:" وتتوقف الإجادة فيه– أي علم المناسبة– على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها".[1]

ويظهر من عبارة البقاعي أهمية الوقوف على مقاصد السور في الكشف عن أوجه التناسب بين الآيات في السور وبين السور كذلك من ناحية أخرى، وهو ما عرُف عند العلماء بعلم المناسبات.

وقد تختلف عبارات المفسرين في تحديد المصطلحات المستعملة بمعنى مقاصد السور فمنهم؛ من عبرّ عنه بسياق السورة، وغرض السورة، والوحدة الموضوعية، الوحدة السياقية للسورة، وموضوع السورة العام، وعمدة السورة، وعمود السورة، وهدف السورة والوحدة البنائية والوحدة الموضوعية للسورة القرآنية...[2]

1- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، ت برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: الدكتور عبد السميع محمد أحمد حسنين، الرياض: دار المعارف، الرياض 1408هـ/1987م، ج1، ص 149-150.

2- دلائل النظام، عبدالحميد الفراهي، بعناية السيد بدر الدين الإصلاحي، الهند: الدائرة الحميدية 1388هـ- 1968م، ص 77. وانظر كذلك: *الوحدة* البنائية للقرآن المجيد، طه جابر العلواني، مصر: مكتبة الشروق الدولية، 2006م، ص 27.

وبرز في القرن العشرين الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا في تفسير المنار باهتمامهما بالوحدة الموضوعية للسورة. والمراد بهذا أن يكون الموضوع للسورة أساسًا في فهم الآيات التي نزلت فيه. وقد سار على هذا النهج عدد من المعاصرين منهم محمود شلتوت[1]، ومحمد عبدالله دراز، ومحمد المدني وغيرهم كثيرون.

كما برز في العصر الراهن مصطلحات تدور في ذات الفلك مثل: الوحدة البنائية والموضوعية للسورة القرآنية، التي تعرف بأنها الهدف والمحور الأساس الذي تندرج موضوعات السورة فيه على ترتيبها.

وذكر العلواني رحمه الله أن جمهرة المعنيين بالدراسات القرآنية سلَّموا بالوحدة البنائية على مستوى السورة؛ فالسورة وحدة، لها عمود يقوم بناؤها عليه، وذلك العمود هو موضوعها الأساس. والموضوعات الأخرى موضوعات معضّدة ساندة تدور حول ذلك العمود، والقرآن بجملته يقوم على أعمدة ثلاثة :أولها: التوحيد وثانيها: التزكية. وثالثها: العمران.[2]

ومن أبرز فوائد الوقوف على مقاصد السور ومحاورها؛ الإفادة في التطبيق والتنزيل للآيات في واقع الحياة. فالغاية من إنزال القرآن العظيم فهمه وتدبّره لتطبيقه وتنزيله في الواقع. فهذه العلوم المتعلقة بسور القرآن الكريم كلها تروم تيسير الفهم والتطبيق لمعاني القرآن وغاياته في الواقع الإنساني، ولذا نجد النبي الكريم- صلى الله عليه وسلم –كان يعلّم الصحابة رضوان الله عليهم العلم والعمل لأن الغاية الأساسية من العلم العمل. ويمكننا القول إضافة إلى هذا أن الكشف عن مقاصد السور، تدحض العديد من الشبهات التي يروّج لها كثير من المستشرقين وغيرهم ممن يبترون الآيات القرآنية عن سياقاتها ومقاصدها الظاهرة لتمرير أفكار مسبقة، حتى صارت بعض الشبهات تُعرض وكأنها مسلمّات.

من هنا أكد محمد دراز رحمه الله أهمية الاهتمام بمقاصد السور وأثرها في دفع شبهات المستشرقين حول القرآن الكريم. فقد حاول عدد منهم الإشارة إلى أن ترتيب الآيات في السور القرآنية كان من اجتهاد الصحابة الأمر الذي انعكس على تباين موضوعات السورة الواحدة. [3]

1- تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت، لبنان: دار الشروق، ط12، 2004م، ج1، ص 24. وقد سار على ذكر مقاصد السور في بدايات كل سور القرآن الكريم.

2- الوحدة البنائية، مرجع سابق، ص 60.

3- مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبدالله دراز، الكويت: دار القلم، 1984م، ص 45.

وواقع الأمر أن ترتيب الآيات كما هو معلوم جاء بتوقيف من النبي عليه الصلاة والسلام من جبريل وحيًا عن الله سبحانه وتعالى. الأمر الذي يجعل البحث عن التناسب بينها من أعظم الأمور التي ينبغي الاهتمام بها.

يقول ابن عاشور رحمه الله في ذلك: " وإنما كان التحدي بسورة ولم يكن بمقدار سورة من آيات القرآن ؛ لأن من جملة وجوه الإعجاز أمورًا لا تظهر خصائصها إلا بالنظر إلى كلام مستوفي في غرض من الأغراض،وإنما تنزل سور القرآن في أغراض مقصودة، فلا غنى عن مراعاة الخصوصيات المناسبة لفواتح الكلام وخواتمه بحسب الغرض، واستيفاء الغرض المسوق له الكلام".[1]

من هنا يتضح أن الاهتمام بالتعرف على الغرض أو المقصد العام لسور القرآن، يدفع أي شبهة تروم التقول على القرآن بانعدام النظم فيه أو ضعفه. كما تدفع ما قد يتوهمه القارئ من تفرّق الموضوعات في السورة دون ناظم لها فيوقعه ذلك في الانصراف عن التفكر والتدبّر في مقاصدها والغاية التي لأجلها سيقت تلك الموضوعات والقصص في هذه السورة أو تلك. ويظهر ذلك جليا في القصص القرآني الذي تناولته العديد من سور القرآن. إلا أن القصة التي تُذكر في سورة معينة لها غرض يتوافق مع مقصد السورة التي تناولتها، يختلف عن غيرها.

ويقول البقاعي في فوائد التعرف على مقصود السورة: " ومن حقق المقصود من السورة عرف تناسب آيها وقصصها وجميع أجزائها..".[2]

كما أن وقوف المفسِّر على مقاصد السور يسدد الفكر والاجتهاد ويضبطها من الوقوع في الزلل والشطط وربما الانحراف في التأويل. فالوقوف على مقصد كل سورة يقتضي استقراء آياتها والتأمل العميق فيما تدل عليه معان تحقق مراد الله تعالى من كلامه.

وقد أشار إلى هذه الفائدة من تحديد محور السورة ومقصدها؛ ابن عاشور حيث أكد ضرورة مراعاة تفسير معاني الآيات الواردة في السورة بناء على ما يتناسب مع محورها ومقصدها العام، ودلل على ذلك بمثال في سورة التين وهو يفسر المراد بقوله تعالى: ﴿**أحسن تقويم**﴾. من الآية: ﴿**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾. [سورة التين: 4]. ويقول بأن المراد بالتقويم: " جعل الشيء في قَوام، أي عدل وتسوية، وأحسن التقويم أعدله وأليقه

---

1 – التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م، ج1، ص 162.

2 – مصاعد النظر، مرجع سابق، ص 149.

بنوع الإنسان، وهذا يقتضي أنه تقويم خاص بالإنسان لا يشاركه فيه غيره من المخلوقات...وهذا التقويم هو الإعداد والتأهيل القادر من خلاله على الفهم والعقل والإرادة والإبداع...وليس تقويم صورة الانسان الظاهرة، إذ لا أثر لهذا في إصلاح النفس وإصلاح الغير والأرض، إذ لو كان هذا هو المراد لذهبت المناسبة التي في بداية السورة من القسم بالتين والزيتون ...فإن العقل أشرف ما خصّ به نوع الإنسان من بين الأنواع، ولذلك كان هو المقصود من الآية، وأما خلق جسد الانسان في أحسن تقويم فلا ارتباط له بمقصد السورة".[1]

وهذه من الفوائد العظيمة التي تجعل المفسر يسير في بيانه لمعاني الآيات في إطار وحدة مقصد السورة لا بعيدا عنها.

كما أوضح ذلك عبدالحميد الفراهي حين قال: " اعلم أن تعيين عمود السورة هو إقليدٌ لمعرفة نظامها .. ولكنه أصعب المعارف، ويحتاج إلى شدة التأمل والتمحيص، وترداد النظر في مطالب السورة المتماثلة والمتجاورة، حتى يلوح العمود كفلق الصبح، فتضيء به السورة كلُّها، ويتبين نظامُها، وتأخذ كل آية محلها الخاص، ويتعين من التأويلات المحتملة أرجحها".[2]

من هنا جاء اهتمام عدد من الكتّاب المعاصرين بمقاصد السور ومحاورها، خاصة في ظل ما يثيره البعض من شبهات حول القرآن ونظمه وموضوعاته. فالحديث عن مقاصد السور ومحاولة فهمها والإفادة من ذلك في معالجة الواقع الإنساني، يعد من الوسائل العظيمة والغايات النبيلة لدفع الشبهات وتعزيز الإيمان بكتاب الله سبحانه وتعالى والحث على التمسك به وتطبيق تعاليمه في الحياة.

ثانيا: مسالك التعرف على مقاصد السور القرآنية

تعددت أقوال العلماء في آليات التعرف والوصول إلى مقاصد السور القرآنية ومحاورها كما تباينوا في الاصطلاح عليها. إلا أن القارئ لأدبيات الموضوع القديمة منها والحديثة؛ يتضح له أنهم يرون أن الكشف عنها يقتضي العلم والإلمام بمقاصد القرآن الكلية. تلك المقاصد التي وإن اختلفوا في تحديدها ولكنهم يتفقون في دورانها حول الهداية والتوحيد وصلاح حياة الإنسان في الدنيا والآخرة. الأمر الذي يجعل الكشف عن مقاصد السور يرجع بطريقة أو أخرى إلى المقاصد الكلية العليا للقرآن العظيم.

1- التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج30، ص 424.

2- دلائل النظام، مرجع سابق، ص 77.

والناظر في كتابات الأقدمين من العلماء ممن اهتموا بمقاصد السور، يلحظ من كلامهم حولها، طبيعة المسلك الذي نهجوه في الكشف عن المقاصد للسور. فمنهم من رأى أن واحدًا من أهم وسائل الكشف عن مقاصد السور؛ النظر في أسماء السور. ومنهم من ذهب إلى النظر في موضوعاتها الداخلية وقصصها إضافة إلى تتبع ما ورد من أحاديث وآثار صحيحة في فضائل بعضها ونحوه، ويبقى الأمر في دائرة الاجتهاد، ذاك أن استنباط محور السورة أمر اجتهادي وتقسيمها لموضوعات أمر اجتهادي أيضا ومحاولة بيان أوجه العلاقة بينها وبين اسم السورة أمر اجتهادي أيضا. والاجتهاد معرّض للصواب والخطأ وللجيد والأجود والحسن والأحسن. [1]

كما أن استنباط مقصد السورة ومحورها يعتمد كذلك على استخراج دقائق معانيها. روى البخاري عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وَجَد في نفسه، فقال: لِمَ يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيتُ أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليُريهم، فقال: ما تقولون في قول الله، –عز وجل–: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نَحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفُتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجلُ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أعلمه له، قال: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فذلك علامة أجلك، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا فقال عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–: لا أعلم منها إلا ما تقول[2].

والفهم الذي فهمه الصحابة فهم صحيح وهو ظاهر الآيات ولا إشكال فيه ولا غبار عليه، ولكن عمر هل يمكن أن يسأل الناس عن معنى ظاهر بهذه الطريقة.

وقد أوضح الزركشي أهمية النظر في أسماء السور حين قال: " ينبغي النظر في اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذَ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق، أو صفه تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى. ويسمّون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز؛ كتسمية سورة البقرة بهذا

1 – بتصرف شديد عن: دلالة أسماء السور القرآنية على محاورها وموضوعاتها، عمر علي حسان عرفات، بيروت: مؤسسة الرسالة ناشرون، 2018م، ص 14.

2 – صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، 1400ه، كتاب المغازي، حديث رقم 4068.

الاسم لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها، وعجيب الحكمة فيها. وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها كثيراً من أحكام النساء".[1]

وأكد هذا المسلك البقاعي وسار عليه واعتبر أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه.

ويتضح من كلام هؤلاء الأعلام حول الاهتمام باسم السورة في الكشف عن مقصدها أنهم يذهبون إلى أن أسماء السور توقيفية وهي كذلك[2].

وبصرف النظر عن الخلاف الدائر بين العلماء حول توقيفية أسماء السور، فإن ما اشتهر وعُرِف بين الصحابة رضوان الله عليهم وتناقلوه حول أسماء السور، يكفي شاهدًا على الاهتمام بعلاقتها بمقاصد السورة ومحاورها. من هنا اهتم جمع من المفسرين قديما وحديثا بهذا المسلك في الكشف عن مقاصد السور وبات موجهًا لمنحاهم في البحث عن مقصد السورة[3].

فذكر عبد الحميد طهماز في كتابه الذي اختص به سورة الكهف عنوانًا عامًا لها باسم: (العواصم من الفتن في سورة الكهف)، وقال في سبب اختيار هذا العنوان لها: "لقد تضمنت السورة ذكر أهم أسباب الفتن في الحياة الدنيا، وبيّنت موقف المؤمن منها، وشرعت له أسباب السلامة والنجاة بأسلوب القصة، فكانت في موضوعها موافقة لاسمها كهف السلامة والأمان.[4]

ومن طرق معرفة مقاصد السور القرآنية كذلك أن يكون موضوع السورة من مطلعها وفواتحها واضحًا، فيظهر للمفسر أن كل السورة مبني على أولها، وفواتحها مؤثرة في موضوعها ومقصودها. وهذا المسلك يقوم على أساس التماسك النصي ويكشف العلاقات الداخلية التي تربط بين عناصر الموضوع.[5]

1 – البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، بيروت: دار المعرفة 1988م، ص 368.

2 – انظر في تفصيل ذلك: دراسة تحليلية في مقاصد سورة النمل، رقية طه العلواني، بحث غير منشور. 2020م

3 – دلالة أسماء السور القرآنية، مرجع سابق، والكتاب بأسره يمثل هذا الاتجاه. إلا أنه مما ينبغي الإشارة إليه أن الأمر لا يخرج عن مجال الاجتهاد البشري المحكوم بالنسبية والقابلية للصواب أو مجانبته.

4– العواصم من الفتن في سورة الكهف، عبدالحميد طهماز، دمشق: دار القلم، 1987م، ص 38.

5 – التناسب السياقي في القرآن الكريم، فضيلة عظمي، عمان: مركز الكتاب الأكاديمي، 2017م، ص 158.

وأكد عدد من المعاصرين أن أمثلة هذا التناسب كثيرة لكنها تُستخرج بالتدبر، فبعضها واضح وبعضها خفي. والتناسب بين مطلع السورة وخاتمتها ومقصدها الرئيسي من مظاهر وحدة السورة القرآنية أو ما عُرف بالوحدة الموضوعية.

وقد سار الشيخ شلتوت في تفسيره كثيرا على هذا المسلك في الكشف عن محاور السور. ففي موضوع سورة آل عمران ومحورها الأساسي، اختار الثبات على اعتبار أن السورة تناولت قضيتين أساسيتين: حوار أهل الكتاب ومعتقداتهم، وسنن الله الجارية في الخلق والكون في سياق الحديث عن موقعة أحد مستشهدًا بكثرة ما جاء الحديث عنه في السورة حول الثبات.

ومما لاشك فيه أن التعرف على مقاصد السورة القرآنية من مسالك الاجتهاد والتدبّر في كتاب الله جلّ شأنه. ولا يعني ذلك الانفلات من أي ضابط أو قاعدة قدر ما يعني أن الأمر من قبيل الاجتهاد المنضبط. وهو نوع يتطلب القراءة المتأنية للسورة، والتدبّر العميق فيها، ولملمة أطراف موضوعاتها، والتفحص في موضوعاتها جميعا، والنظر في أهداف كل موضوع، ثم التأمل في النهاية لاستخلاص المقصد الأكبر من السورة.

ومن الوسائل التي تعين على كشف محور السورة كذلك؛ النظر المتأني في السورة مرة بعد مرة دون الاقتصار على بعضها، مع تصفية القلب والفكر من الآراء والأفكار المسبقة التي تحول دون وصول المتدبّر إلى فهم معاني السورة والآيات فيها. وقد أشار الشاطبي إلى هذه القضية حين قال: إن **اعتبار جهة النظم مثلا في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد، غاية المقصود كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها.** [1]

وهذا المسلك من المسالك عميقة الأثر وخطيرة الضرر — إن أُغفلت أو أُهملت– إذ قد تسوق إلى التعجل في استنباط محور أو مقصد للسورة ومن ثم البناء عليه في التفسير وهو ليس كذلك. ولعل غياب تطبيق هذا المسلك في التعرف على مقصد السورة ومحورها، من أهم أسباب التباين والاختلاف بين العلماء والباحثين في تحديد محور السورة ووحدتها الموضوعية.

وهذا واضح في تناول عدد من الباحثين لمقاصد سورتي الأنفال والتوبة على سبيل المثال. فقد تداولوا أن محاور السورتين القتال. الأمر الذي أدى إلى تركيزهم على المعارك: معركة بدر في سورة الأنفال، ومعركة تبوك في سورة التوبة، وإغفال المقاصد العظيمة الأخرى كما سيأتي تفصيله في البحث.

---

1 – التفسير الكبير، مرجع سابق، ج27، ص 134.

وقد ذكر البقاعي رحمه الله في مقدمة تفسيره أنه كان يمكث شهورًا في البحث عن مناسبة بين آية وأخرى،[1] فكيف حين يكون البحث عن محور السورة ومقصدها الناظم لآياتها وموضوعاتها. والحق أن الكشف عن مقصد السورة يقتضي التأني والنظر المتواصل خاصة في السور السابقة والتالية للسورة المراد الكشف عن مقصدها.

من هنا جاء قول الشيخ دراز: إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجّمة يحسبها الجاهل أضغاثًا من المعاني حشيت حشوًا، وأوزاعًا من المباني جمعت عفوًا؛ فإذا هي –لو تدبرت– بِنيةٌ مُتماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسسٍ وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول؛ فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضامّ والالتحاق. كل ذلك بغير تكلفة ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلًا، والمختلف مؤتلفًا.

ومن مسالك الكشف عن مقاصد السور القرآنية كذلك؛ الوقوف على السياق الزماني والمكاني الذي نزلت فيه السورة والآيات. وجاء اهتمام العلماء بسياقات التنزيل والظروف التي أحاطت به ضمن اهتمامهم الشديد بأسباب النزول، فقد نزلت العديد من الآيات القرآنية لمعالجة مشكلات معينة أو إجابة عن تساؤلات مطروحة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء بيانها وسيلة قوية في فهم معانيها والتوصل إلى مقاصدها ومدلولاتها ومن ثم استنباط الأحكام منها.

وعبّر المفسرون عن السياق بالقرائن اللفظية والحالية. ورد عن السيوطي (911هـ) فيما نقله من تعريفات التفسير: " التفسير كشف معاني القرآن، وبيان المراد منه، سواء أكانت معاني لغوية أو شرعية بالوضع، أو بقرائن الأحوال، ومعونة المقام".[2]

ولا يخفى أن الكشف عن السياق له ارتباط وثيق بأسباب النزول. من هنا اهتم المفسرون بأسباب النزول أو أحوال التنزيل فهي من أكثر وأدقّ الأمور التحامًا بالسياق. بل هي من أهم الوسائل التي ينبغي للمجتهد والمفسر الاهتمام بها لتكشف له عن المراد بالسياق. ولعل من طرق التعرف على الصحيح منها؛ الاهتمام بتتبع

1- مصاعد النظر، مرجع سابق، ج1، ص 16.

2 – التحبير في علم التفسير، جلال الدين السيوطي، بيروت: الكتب العلمية، 1988م، ص: 56 .

أحداث السيرة النبوية وتمحيص الأخبار الواردة في وقائعها. الأمر الذي يسهم في تعيين الصحيح من أسباب النزول مع الاستعانة بالسياق على بيان الأصح من أسباب النزول كذلك.

وقد استعمل محمد رشيد رضا التعبير عن ذلك بالبيئة التي نزل فيها النص الشرعي، وعدّها من أنواع القرائن الحالية المعينة على تدبر وفهم الخطاب. ومن خلالها يمكنه فهم الظروف التي نزلت الآيات لمعالجتها ومن ثمّ العبور إلى واقعه وفهم ملابسات الواقع الإنساني، ليتعلّم كيفية تنزيل هذه الآيات وتطبيقها في حياته لمواجهة المواقف المختلفة. جاء في تفسيره:" فالأحداث والوقائع الفكرية والاجتماعية والسياسية التي عاصرت بيئة نزول السور والآيات القرآنية، من أهم القرائن التي ينبغي الاهتمام بها في سياق تدبرها وتطبيقها في الواقع، وهي مما يمكن أن يُلحق بأسباب النزول".[1]

وسار على ذلك الاهتمام بالسياق والأجواء التي نزلت فيها السور القرآنية، عدد من المفسرين في القديم والحديث خاصة فيما يتعلق بالكشف عن مقاصد السور. فقد أكد دروزة أن جلاء جوّ نزول القرآن، يوضّح كثيرًا من المقاصد القرآنية. ويؤكد ضرورة الاهتمام بمقاصد القرآن ودورها في تحقيق تدبّر القرآن الكريم. [2]

وثمة وسائل فرعية للكشف عن محاور السور ومقاصدها ذكر بعض المعاصرين منها: استعراض الأحداث البارزة في السورة، والمناسبات بين مقاطع السورة. [3]

ونستطيع القول كذلك بأن من وسائل الكشف عن مقاصد السور؛ الاهتمام بأحوال البشر من عناصر الفهم السليم التي تعين المفسّر على الوقوف على الأحوال الاجتماعية وما يؤثر فيها وكيفية تلقيها للخطاب وفق ما تمرّ به وما تتعرض له. وهي من الأدوات التي يحتاج المعاصرون اليوم إلى توجيه مزيد من الاهتمام في ظل التطورات الإنسانية والأحوال الاجتماعية التي يمرّ بها العالم.

بل يمكننا القول بأن تلك الأحوال والأجواء جاءت كنموذج لأحوال البشر، فما حدث مع هؤلاء قد يحدث مع غيرهم. فالنفس البشرية وإن تغيرت أحوالها وبيئات معيشتها كما هو حاصل اليوم، إلا أن الطبيعة البشرية لا تتغير. فالمعرفة بأحوال البشر لا ينبغي أن تنحصر في جيل التلقي الأول الذين نزل فيهم القرآن أولًا،

---

1 – تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مصر: الهيئة المصرية للكتاب، 1990م، ج1، ص 23.

2 – التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، مصر: دار إحياء الكتب العربية،1383هـ، ج1، ص7 .

3 – مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دمشق: دار القلم، الطبعة الثالثة، 2000م، ص 45. وكذلك: أهداف كل سورة ومقاصدها، مرجع سابق، ص 207.

فالقرآن العظيم رسالة عالمية لكل البشر ولكل البيئات والأحوال، تخاطب البشر في مختلف أطوارهم وأحوالهم. والفهم والتدبر مراحل نحو التطبيق والتنزيل للنصوص القرآنية.

ويمكننا القول بأن الجمع بين هذه المسالك كلها مما يسهل على المتدبّر الوصول إلى المقصد أو عمود السورة إضافة إلى ضرورة التماس المناسبات وربط الآيات بعضها ببعض والعودة إلى السورة مرات ومرات مع تكرار النظر في جميع أجزاء السورة، ومضامين السور المجاورة ومقاصدها مع الحرص على التضرع إلى الله سبحانه أن يرزقه من علم كتابه العظيم وفهمه.

ولابد للمتدبّر من الصبر على طلب ذلك والتوصل إليه بتلاوة السور والآيات مرة بعد مرة، وقد يستغرق الأمر شهورًا وربما سنوات. [1]

المبحث الثاني: الكشف عن مقاصد سورة التوبة

مما لاشك فيه أن التوصل إلى مقاصد السور يعد من الأمور الاجتهادية وإن كان ذلك الاجتهاد محكومًا بوسائل وآليات معرفية لابد من تحققها قبل استنباط المقاصد. والدراسة محاولة تطبيقية بإعمال الوسائل المذكورة سابقا للكشف عن مقاصد سورة التوبة العظيمة. وتتبنى الدراسة بعض المسالك المذكورة للكشف عن مقصد سورة التوبة الأساسي، ولا تستبعد الدراسة وجود مسالك أخرى باعتبار أن الكشف عن مقاصد السور من الأمور الاجتهادية التي تتفاوت فيها الأفهام والاجتهادات.

المسلك الأول: تسمية السورة وأجواء نزولها

يعد هذا المسلك من أكثر الطرق للتوصل إلى مقصد ومحور السورة . وأسماء السور بعضها ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه. من هنا جاء اهتمام العلماء بالربط بين أسماء السور ومقاصدها. فقد أكد ذلك ابن قيم الجوزية بقوله: "لما كانت الأسماء قوالب للمعاني، ودالة عليها اقتضت الحكمة أن يكون بينها وبينها ارتباط وتناسب ...بين الأسماء والمسميات من الارتباط والتناسب والقرابة ما بين قوالب الأشياء وحقائقها.."[2].

1- البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران، محمد عناية الله سُبحاني، عمان: دار عمار للنشر والتوزيع، 1414هـ، ص 58.

2 - زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط، ج2، ص 307-308.

واعتماد هذا المسلك منهجًا في الكشف عن مقاصد سور القرآن، طبقّه البقاعي رحمه الله في كتابيه مصاعد النظر ونظم الدرر.

وسورة التوبة من السور التي عُرف لها الكثير من الأسماء وليس أكثر منها في ذلك إلا سورة الفاتحة. وتربو على الأربعة عشر اسمًا: أحدها: سورة التوبة. والثاني: براءة، والفاضحة[1]. قال ابن عباس: التَّوْبَةُ هي الفَاضِحَةُ، ما زَالَتْ تَنْزِلُ، ومِنْهُمْ ومِنْهُمْ، حتَّى ظَنُّوا أنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أحَدًا منهمْ إلَّا ذُكِرَ فِيهَا[2].

إلا أن **أشهر هذه الأسماء سورة التوبة، وهو يشير إلى ما تضمنته السورة من تسجيل توبة الله، وتمام رضوانه على المؤمنين الصادقين، الذين أخلصوا في مناصرة الدعوة**[3].

وحين يتم تناول سبب تسمية سورة التوبة بالتوبة، فغالبية المفسرين في القديم والحديث، يذهبون إلى أنها سميت بسورة التوبة لما ذكر فيها من توبة الله على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين والمهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم في ساعة العسرة في غزوة تبوك، والثلاثة الذين تخلفوا عن الغزوة. وعلى الرغم من تأكيد بعض الباحثين أهمية النظر في اسم السورة للكشف عن مقاصدها ومحاورها، وبيان أن أشهر أسماء السورة: التوبة، إلا أنهم غالبا لم يقفوا عند عمومية مقصد التوبة للناس كافة.

إلا أن آيات التوبة جاء ذكرها بعد الحديث عن المشركين، وفي الحديث عن أهل الكتاب ومخالفاتهم التي نقضوا فيها رسالتي عيسى وموسى – عليهما الصلاة والسلام – وكل الأنبياء الذين أرسلوا إليهم، نجد كذلك التوبة حاضرة في الحديث عن المنافقين في بيان واضح أن باب التوبة مفتوح لكل الأصناف الذين جاءت سورة التوبة على ذكرهم.

فالتوبة علاقة بين الإنسان وخالقه، مستمرة متواصلة، ولذلك هذه السورة العظيمة بنت أساسيات التوبة وأوضحت أن الإنسان مهما صدر منه في حياته، فأبواب التوبة مفتوحة أمامه ما لم يغرغر. جاء في سنن الترمذي؛ عن عبدُ اللهِ بنُ عمرَ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: "إنَّ اللهَ يقبَلُ توبةَ العبْدِ ما لم يُغرْغِرْ[1]".

1- التفسير الكبير، مرجع سابق، ج 15/ 521.

2 – صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، 1400ﻫ، حديث رقم 4882.

3 – موسوعة خصائص السور القرآنية، جعفر شرف الدين، تحقيق: عبدالعزيز التويجري، بيروت: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، 1420ﻫ، ج3، ص 227.

من هنا يمكننا القول بأن **محور السورة العام: التوبة، وكل ماتكلمت عنه السورة في علاقات المسلمين مع الكيانات الأخرى المحيطة بهم يدور ضمن إطار التوبة.**

ولم تأت سورة من سور القرآن العظيم تحمل اسم فضيلة من الفضائل، أو عمل من أعمال القلوب إلا سورة التوبة، وسورة الإخلاص ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

والسورة تعد من آخر ما نزل من القرآن، في وقت اشتدت فيه دولة الإسلام، وقوي أمر المسلمين، ذلك الوقت الذي يظهر النفاق والمنافقون الذين لا يقدرون على إظهار كفرهم خوفًا من سطوة الإسلام وغلبة المسلمين، فيلجؤون للخداع والمكر والفتنة بين المؤمنين من داخل الصف المسلم. الأمر الذي جعل قضية النفاق والتعامل مع المنافقين من أبرز موضوعاتها.

وذكرت السورة تزايد تربص المنافقين بالمؤمنين الدوائر، واستمرارهم في مؤامراتهم المتمثلة ببناء مسجد الضرار الذي بنوه ريبة وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين، فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي فيه، سعيًا لخداع المؤمنين وإخفاء مراميهم ودسائسهم، بعد أن ظنوا قرب تحقق آمالهم، فيما لو نجح الروم في غزوهم، لكن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أخّر الصلاة فيه، فتأجّل افتتاحه حتى يعود، وفي الطريق نزلت الآيات تفضح أمرهم وتكشف خفاياهم[2].

إلا أن الحديث عن التوبة لم ينقطع عند ذكر المنافقين: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾. [سورة التوبة:74]

وقد ذكرت كلمة التوبة في السورة ما يقارب **17** مرة مع كل الأصناف من البشر الذين ذُكروا في السورة العظيمة. فجاء ذكر التوبة متعلقًا بالنبي، والمهاجرين، والأنصار، وعموم والمؤمنين، والمذنبين والعصاة، والكافرين،

=

1 – سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر: الطبعة الثانية، 1395هـ – 1975م.

2 – الرحيق المختوم بحث في السيرة النبوية، صفي الرحمن المباركفوري، قطر: وزارة الأوقاف، 2007م،: ص ٣٦٩ باختصار.

والمنافقين. وهذا يشير إلى أن باب التوبة مفتوح أمام البشر. من هنا وردت تسميتها بسورة التوبة في كلام الصحابة رضوان الله عليهم.

المسلك الثاني: علاقات التناسب بين السورة وما قبلها وما بعدها

يعد البحث في المناسبات بين السور المتجاورة، والمناسبات بين بداياتها وخواتيمها وموضوعاتها، من أهم مسالك الكشف عن مقصد السورة.

وسورة الأنفال جاءت قبل سورة التوبة في ترتيب المصحف حتى عدّها البعض متممة لسورة الأنفال.

وسورة التوبة نزلت بعد مواجهة المسلمين لجيش الروم في تبوك، حيث أصبح لهم كيان قوي مستقل، وباتت الأمم والقبائل من حولهم تهابهم. أما سورة الأنفال فقد نزلت في بدايات المرحلة المدنية حتى سمّاها ابن عباس رضي الله عنهما سورة بدر[1]. والتسمية ترجع لأنها نزلت تعالج مواقف ودروس غزوة بدر، ومن ثم معالجة قضية الأنفال كنموذج وموقف يوضّح أن رسالة القرآن جاءت لتعالج المجتمع البشري بكل إحداثياته ومواطن ضعفه.

الأمر الذي يؤكد أن الحديث عن الجهاد في سورة الأنفال جاء أكثر ما جاء للحديث عن جهاد النفس الذي هو أعلى مراتب الجهاد. فرسالة القرآن لم تنزل في مجتمع مثالي منزّه عن الهفوات البشرية ومواطن الضعف التي لا يخلو منها إنسان. وهذه المسألة من أولويات العملية التربوية والاقتداء بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. من هنا فإن سورة الأنفال حققت هذا المقصد ومن أول آية فيها جاء مفتتحها بقوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مومِنِينَ ﴾. فسؤال المسلمين عن الغنائم جاءت إجابته حول كيفية التوزيع بعد أربعين آية، في حين أن الحديث المباشر بعدها جاء بالأمر بالتقوى وإصلاح ذات البين وطاعة اله ورسوله صلى الله عليه وسلم والذكر. ثم جاءت سورة التوبة تتمة لما نزلت به سورة الأنفال رغم الفارق الزمني بين نزول السورتين.

1 – رواه مسلم في صحيحه، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر، رقم الحديث 3031.

إلا أن الغالب على كثير من العلماء والباحثين الذين تناولوا السورة؛ وصفهم لسورة الأنفال بسورة الجهاد ويعنون به القتال[1]. فرغم تأكيدهم أن الجهاد له مراتب وأعلاها جهاد النفس ومغالبة هواها إلا أنهم حين تناولوا سورتي الأنفال ثم التوبة، جاء التركيز على الجهاد بمعنى القتال وليس بمعناه العام. الأمر الذي أدى غالبا إلى ضعف التركيز على الجوانب المتعلقة بجهاد النفس في السورة رغم تأكيدهم أهميتها.[2]

من هنا تناولوا موضوعات سورتي الأنفال والتوبة في فضل ومكانة وقواعد و أحكام قتال المشركين والكفار وأهل الكتاب وعلاقات المسلمين بالمنافقين، ومكانة الشهادة في سبيل الله، وأحكام الأسرى غالبا.

وبالرجوع إلى آيات السورتين؛ الأنفال والتوبة، يتضح أن مفهوم الجهاد الوارد فيهما كان شموليًا مؤكدًا البدء بأعلى مراتبه المتمثلة في جهاد النفس من خلال الحديث المتواصل فيهما عن التقوى ومحاسبة النفس والتوبة الجامعة لكل هذه المعاني. وهو أمر قلّ الاهتمام به إلا في سياق الحديث عن الإعداد المعنوي للحرب والقتال. الأمر الذي أدى إلى انصراف غالب من كتب عن السورتين إلى تحديد مقاصدهما في الجهاد وأحكامه بمعنى القتال![3].

ومن أوجّه التناسب بين سورة الأنفال وسورة التوبة كذلك ؛ ما جاء في خواتيم سورة التوبة حول الحديث عن البنيان على التقوى حيث قال سبحانه: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[سورة التوبة:109].

---

1 – ذكر السمعاني في تفسيره أن سورة الأنفال تعرف بسورة الجهاد . وهي تسمية لم تثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم وإنما من اجتهاد بعض أصحابه رضي الله عنهم. انظر: تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني، تحقيق: ياسر أبو تيميم و غنيم أبو بلال، دار الوطن للنشر، 1997م، ج2، ص 167. وانظر في عدم ثبوت التسمية عن النبي صلى الله عليه وسلم: أسماء سور القرآن وفضائلها، منيرة الدوسري، الرياض: دار ابن الجوزي، 2006م، ص 200.

2– من أمثلة هذه الدراسات: التربية الجهادية في الإسلام من خلال سورة الأنفال، أحمد تالي إدريس، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة أم القرى، 1990م. أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة دراسة تحليلية، مرجع سابق، 2008م. معالم الجهاد في سورة التوبة، صفوان عبدالله، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 2000م. أحكام الجهاد في سورتي الأنفال والتوبة دراسة موضوعية مقارنة، محاسن الصاحب، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، 2014م.

3– انظر على سبيل المثال: المراجع السابقة وهي غالبها رسائل جامعية سارت على ذات النهج الذي سار عليه كثير من المفسرين القدامى رحمهم الله. حتى إنهم في استعمال مصطلح الجهاد حصروه في القتال.

فعلى الرغم من أن سورة الأنفال نزلت في الحديث عن غزوة بدر، إلا أن الحديث عن التقوى وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والذكر والصدق مع الله والثبات والتوكل على الله سبحانه،استغرق السورة بأكملها. الأمر الذي يدل على أن المعارك والغزوات التي ذكرها القرآن، لم تكن لتأجيج الصراعات والنزاعات بين البشر وإنما الهدف منها: بناء الإنسان على عين التقوى ومخافة الله وتحقيق أوامره بالعدل وإقامته بين الناس وذاك هو الإعداد المعنوي والنفسي للجهاد بكل صوره وأشكاله.

ومن أوجّه التناسب كذلك ؛ الترابط بين بداية سورة التوبة: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة التوبة:1] وختام السورة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ. فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة التوبة:128-129]. ففي أول السورة إعلان البراءة من تلك العهود والمواثيق التي بين المسلمين وهؤلاء المشركين الذين نقضوا العهود ولم يوفّوا بالمواثيق ولم يحترموا المعاهدات، وفي ختامها تذكير بحرص النبي صلى الله عليه وسلم على تبليغ الرسالة وأداء الامانة، إلى جانب النص على رأفته ورحمته عليه الصلاة والسلام.

الأمر الذي يؤكد أن ما جاء في السورة من أحكام قوية حاسمة في حياة الفرد والدول، وفي علاقات الدول فيما بينها، يقابله في آخر السورة تذكير بأن هذه الأحكام والتشريعات وحرصه عليه الصلاة والسلام هو عين الرأفة والرحمة من خلال النفع العظيم الذي جاءت به رسالة القرآن العظيمة.

ومما يشير كذلك إلى أن محور السورة هو التوبة؛ تأكيد عدد من المفسرين أن السورة التي نزلت بعد سورة التوبة ؛كانت سورة النصر. جاء في موسوعة خصائص السور القرآنية: " نزلت سورة النصر بعد سورة التوبة، وهي آخر ما نزل من القرآن بالمدينة، وكان نزولها في حجّة الوداع بمنى، فيكون نزولها في السنة العاشرة من الهجرة. وكان هذا بعد أن أتمّ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته، وأخذ الناس يدخلون أفواجًا في دينه"[1].

1 – موسوعة خصائص السور القرآنية، مرجع سابق، ج 12، ص 273.

وسورة النّصر تُسمى سورة التّوديع؛ ويُرجع علماء التفسير سبب تسميتها بذلك كونها أشارت إلى نعي النّبي الكريم –عليه الصّلاة والسّلام– وتوديعه للدّنيا، وإعلام الله عز وجلّ للنبي الكريم باقتراب أجله، كما تدل على إتمام الرّسالة، وأداء الأمانة، وتمام مَهمّة رسول الله –عليه الصّلاة والسّلام– وإنهائها بما نزل من الوحي[1].

ولو أننا تدبّرنا في سورة النصر لوجدنا الآية الأخيرة فيها تحث النبي الكريم عليه الصلاة والسلام على التسبيح والاستغفار: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. إضافة إلى ما ورد حول اقتراب أجل النبي صلى الله عليه وسلم. فالأمر بالإخلاص والصدق والطاعة والثبات في سورة الأنفال ثم التوبة الشاملة الجامعة في سورة التوبة ثم خصوص الاستغفار في سورة النصر والتوبة والاستعداد لرحيل النبي صلى الله عليه وسلم.

وواقع الأمر أن أوجّه التناسب بين سورتي الأنفال والتوبة كثير وله العديد من المواضع والموضوعات حتى اعتبر بعض العلماء أن التوبة جاءت متممة لسورة الأنفال فلم يُفصل بينهما بالبسملة. والاهتمام بتتبع المناسبات بينهما على اختلافها، يسهم في التعرف على مقصود كل منهما وما بينهما من التقاء.

ومن المناسبات التي يمكن أن توضّح مقصد سورة التوبة المتمثل في فريضة التوبة ؛ مناسبتها مع سورة يونس المكية. وهي من السور التي نزلت بين الإسراء والهجرة، فهي سورة مكية من أواخر ما نزل من القرآن بمكّة[2]. ومن أعظم مقاصد سورة يونس المكية ؛ الحديث عن لقاء الله سبحانه وقربه. ومن ثم سرد أحوال الذين لا يرجون لقاء الله. كما جاءت فيها قصة قوم يونس الذين يشكلون أنموذجًا للتائبين المستدركين قبل فوات الأوان. فالتناسب بين سورة التوبة المدنية اللاحقة لها في النزول وبينها، عظيم.

الأمر الذي يؤكد أن باب التوبة مفتوح للناس جميعا ويتمم المقاصد العظيمة الواردة في سورة التوبة: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَٰنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ

1- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ، جزء 15. ص 419 بتصرّف.

2 – التحرير والتنوير، مرجع سابق، 11/ 77-78.

حِينٍ. وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.[سورة يونس: 98-100]. أي لم يحصل لأمة من الأمم أن رفع الله عنها العذاب وقبل منها إيمانها، وقد كان العذاب سيقع بهم وظهرت أماراته، إلا لقوم يونس عليه السلام، فإنهم لما أدركوا أنه العذاب سيحل بهم سارعوا بالتوبة والأوبة فكشف الله عنهم عذابه ولم ينزله بهم.

ولا يخفى ما في الآية من بيان واضح أن الدين لا يكون بالإكراه، جاء في تفسير المنار: " هذا ليس في استطاعتك أيها الرسول، ولا من وظائف الرسالة التي بعثت بها أنت وسائر الرسل وأجمع علماء المسلمين على أن إيمان المكره باطل لا يصح، لكن نصارى الإفرنج ومقلديهم من أهل الشرق لا يستحون من افتراء الكذب على الإسلام والمسلمين، ومنه رميهم بأنهم كانوا يكرهون الناس على الإسلام، ويخيرونهم بينه وبين السيف يقط رقابهم"[1].

كما أن مجيء سورة يونس المكية بعد سورة التوبة المدنية رغم الفارق الزمني، يشير كذلك إلى أن ترتيب سور القرآن توقيفي. فالتناسب جلّي بينهما وأواخر سورة يونس يردّ المزاعم بأن سورة التوبة أمرت المسلمين بإكراه الناس على الدخول في الإسلام أو السيف، ولا يقع الأمر في إطار النسخ كما سيأتي بيانه.

إن اهتمام المجتهدين والعلماء بالتناسب بين السور والآيات، من أعظم الوسائل في ردّ المزاعم الباطلة التي تُثار حول سماحة الإسلام وعدالة تعاليم القرآن العظيم وإعجازه في النظم والترتيب وإحكام آياته.

المبحث الثالث: الآثار المترتبة على إغفال مقصد التوبة في سورة التوبة

تُعد سورة التوبة من أكثر السور في القرآن التي أُسيء تأويلها وفهمها من خلال إعمال منهج التعضية في قراءة القرآن الكريم[2]. الأمر الذي يسوق إلى الوقوع في إشكالية التخيّر وبتر النصوص والمفردات من سياقاتها دون إقامة الاعتبار لمقصود السورة الناظم لآياتها وموضوعاتها. ومن ثم الخروج بمبررات لمواقف مغالية ومتشددة وبعيدة كل البعد عن عظمة الإسلام وسماحة دعوته.

1 - تفسير المنار، مرجع سابق، ج11، ص 394.

2 - حول القراءة العضين انظر: أثر القراءة العضين وتداعياتها في فهم السنة النبوية، رقية طه العلواني، بحث منشور في مجلة كلية الدراسات العربية والإسلامية، فبراير 2005م.

يقول العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله في تفسيره لسورة التوبة: "فهم القرآن لا يكون صحيحًا إلا بالجمع بين الآيات المتقابلة في الموضوع الواحد الذي يختلف التعبير فيها باختلاف الوجوه والاعتبارات، التي ضلّت الفرق بنظر كل منها إلى إحداها دون الأخرى مطلقا، أو جعلها ما وافق مذهبها أصلا يرد غيره إليه بالتأويل قريبًا كان أو بعيدًا، ومثل الجبرية مع القدرية هنا كمثل المرجئة مع الوعيدية من الخوارج وغيرهم من آيات الوعد والوعيد، فهؤلاء كلهم من: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ وضربوا بعضه ببعض"[1].

فالقتال لا يُفهم في هذه السورة الكريمة بعيدا عن مفهوم الجهاد بمعناه القرآني العظيم، والجهاد لا ينحصر في قتال ولا في رفع سيف ولا في استعمال القوة. فالجهاد الأعظم جهاد النفس حتى تخضع وتنصاع فيكون الإنسان عبدًا لله اختيارًا كما هو اضطرارًا وهذا الخضوع يقتضي في بعض الأحيان، استعمال القوة العادلة، التي تحمي حرية الإنسان وتحافظ على حقوقه. وهس قوة لا تصادر حرية الإنسان في الاعتقاد أو ما يتعلق بالحياة الكريمة التي تليق بإنسانية الإنسان. من هنا عرّف الجرجاني الجهاد بأنه الدعاء إلى الحق[2].

أما الحرب فهي القتال بين فئتين، وقد يذكر على معنى القتال، وجمعه حروب[3]. قال ابن منظور: «الحرب نقيض السلم، والأشهر تأنيثها لأنهم ذهبوا بها على المحاربة»[4]. وقد وردت كلمة الحرب في آيات كثيرة من القرآن الكريم مرادا بها القتال، ومنها قوله تعالى: ﴿فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون﴾ [سورة الأنفال:57]، وقوله: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها . . . ﴾ [سورة محمد:4].

فالجهاد أبلغ من الحرب والغزو تأثيرًا وأكثر دلالة وإحاطة بالمعنى المقصود، فهو يرمي إلى تحقيق أهداف سامية وغايات نبيلة، وليس كل من حمل السلاح يكون مجاهدًا في سبيل الله.

إن مشكلة الخلط بين المسمّيات والجهل بدلالات الكلمات أو التساهل في إطلاقها، أوقع الكثيرين في اضطراب المفاهيم.

---

1 – تفسير المنار، مرجع سابق، ج11، ص 301

2 – التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء، بيروت: المكتبة العلمية، 1983م، ص.107

3 – المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر: دار الدعوة، ج 1 ص 164 .

4 – لسان العرب، ابن منظور، بيروت، دار صادر، ط3، 1414 هـ، ج 1 ص 302 .

لقد مرّ تشريع الجهاد في الإسلام بعدة مراحل، ففي المرحلة المكية كان المؤمنون مأمورين بالصبر وكف الأذى كما قال الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [سورة المائدة:64]، ثم لما انتقلوا للمدينة وصارت لهم دولة أذن لهم بالقتال ولم يفرضه عليهم قال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[سورة الحج:39]، ثم جاء الأمر بقتال من قاتلوا[1]؛ قال عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[سورة البقرة:190].

وقال ابن القيم (رحمه الله): «لما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وأيده الله بنصره بعباده المؤمنين الأنصار، وألّف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدّموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ [سورة الحج:39]، ولم يأذن الله بمكة لهم في القتال، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة. فقد روى ابن حبان في صحيحه عن ابن عباس قال: لما خرجَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ من مكَّةَ قالَ أبو بكرٍ أخرجوا نبيَّهم إنَّا للَّهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ليهلِكُنَّ فنزلت الآية، قالَ فعرفَ أنَّهُ سيكونُ قتالٌ قالَ ابنُ عبَّاسٍ هيَ أوَّلُ آيةٍ نزلت في القتالِ"[2].

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر: «أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن» فأنزل الله عزّ وجّل: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ وهي أول آية نزلت في القتال. وإسناده على

1 – للمزيد من التفاصيل انظر: قراءة مقاصدية في جهاد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم مقصد العدالة أنموذجًا، رقية طه العلواني، مجلة الشهاب، جامعة الوادي، الجزائر، المجلد الثالث، العدد 2، يونيو 2017م،

www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/391/3/2/26016

2 – صحيح ابن حبان، محمد بن حبان البستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الثانية، 1414هـ، حديث رقم 4710.

شرط الصحيحين. ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾..»[1].

وقد أباحت الأديان السماوية القتال دفاعا عن النفس وعن الفضيلة، وعن العبادة، وعن الرسالة الإلهية، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[سورة الحج:39-40]

قال ابن المنذر: «روينا عن ابن عباس أنه قال في قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ «ولا تقتلوا النساء والصبيان، والشيخ الكبير، ولا من ألقي إليكم السلم وكف لله، فإن فعلتم هذا فقد اعتديتم»[2].

من هنا أكد هذه الحقيقة عدد من المعاصرين ومنهم د.وهبة الزحيلي (رحمه الله) حيث يقول: «إن الأصل في العلاقات الدولية في الإسلام هو السلم، حتى يكون اعتداء على البلاد أو الدعاة أو حرمات الإسلام أو المسلمين، بفتنتهم عن دينهم. والحرب حينئذٍ ضرورة للدفاع عن النفس والمال او العقيدة.. »[3].

أي أن الله أمر بالقتال لصدّ العدوان والدّفع عن الأعراض والحرمات، وحرّم في الآيات بصورة واضحة لا لبس فيها الاعتداء والبدء بالقتال، وإنما أمر بقتال من قاتل وبدأ بالبغي، وأمر سبحانه نبيه بأن يجنح ويختار السلم إن جنحوا له وأرادوه واختاروه، ثم نبّه الله عزّ وجّل على لزوم التقوى وعدم التعدي، بل الرد بالمثل دون إفراطٍ وتعدٍّ وجور.

والإسلام كلّف الناس بتحقيق العدالة في الأرض، وهذا يوجب على المسلمين مكافحة الظلم والبغي حيث كان، لا لغرض فرض الهيمنة والسيطرة واستعمار الشعوب بل لتحقيق قيمة العدالة وحمايتها. وقد ورد في الحديث:

1 – انظر زاد المعاد في هدي خير العباد، مرجع سابق، ج 3 من صفحة 62 إلى 64.

2- الإشراف على مذاهب العلماء، ابن المنذر، الإمارات العربية المتحدة: مكتبة مكة الثقافية، 1425هـ – 2004 م، ج4 ص 21.

3 – العلاقات الدولية في الإسلام، وهبة الزحيلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1981م، ص 138. ومثل قوله: خلفيات الصراع بين الإسلاميين واللائكيين، عبدالله جاب الله، الجزائر، دار المعرفة، 1999م، ص 88.

أن أعرابيًا قال للنبي عليه الصلاة والسلام: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

فكل قتال لدفع الظلم ومعاونة المظلومين ضد الظالمين ونصرة الحق هو من القتال في سبيل الله، وكل طريق للوصول إلى الحق أو حمايته أو الدفاع عنه هو في سبيل الله سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا، وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[سورة النساء:74-75].

فالحرب في الإسلام لحماية المستضعفين من المؤمنين أمثال الساكنين في مكة الذين استذلهم كفارها وآذوهم ليمنعوهم من الهجرة وليفتنوهم عن دينهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[سورة النساء:76]. فهي حرب قامت لإيجاد نظام أشبه ما يكون بما توافق عليه بعض سادات قريش قبل الإسلام في حلف الفضول[2]، لمنع الظلم ووقف اعتداء القوي على الضعيف. فهي حرب عادلة بقيمها وأخلاقياتها ومقاصدها وقواعدها المبثوثة في سور القرآن.[3].

أما فيما عدا ذلك فالأصل السِلم لا الحرب.

ورغم كل هذا فإن البعض ذهبوا إلى أن آية السيف نسخت غيرها من آيات محكمة تحدثت عن الصفح والعفو والتسامح والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ .[سورة التوبة:5]. وهذه الآية، آية السيف التي قال فيها الضحاك بن

1 – رواه البخاري، حديث رقم (123) كتاب العلم، ومسلم حديث رقم (1904)، كتاب الجهاد.

2 – الرحيق المختوم، مرجع سابق، ص 50.

3 – أطلق القديس توما الأكويني مصطلح الحرب العادلة حين تكون القضية التي قامت لأجلها عادلة.

مزاحم: أنها نسخت كل عهد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أحد من المشركين وكل عهد ومدة[1]. وقال ابن عطية: وهذه الآية نسخت كل موادعة في القرآن أو مهادنة، وما جرى مجرى ذلك وهي على ما ذكر مائة آية وأربعة عشر آية[2].

وهذه التسمية للآية بآية السيف ليست بمصطلح قرآني، فلفظة السيف لم ترد في القرآن الكريم ولا يُعلم على وجه التحديد من أين أتت إلا أن عددًا من المفسرين والعلماء تداولوها واحدًا عن واحد. [3]

يقول الرزاي رحمه الله: " ولأن الجهاد بالمقاتلة لا يحسن أثرها إلا بعد تقديم الجهاد بالحجة، وأما الجهاد بالحجة فإنه غني عن الجهاد بالمقاتلة، والأنفس جوهرها جوهر شريف خصّه الله تعالى بمزيد الإكرام في هذا العالم، ولا فساد في ذاته إنما الفساد في الصفة القائمة به وهي الكفر والجهل، ومتى أمكن إزالة الصفة الفاسدة مع إبقاء الذات والجوهر كان أولى"[4].

وقد ناقش عدد من المعاصرين دعوى نسخ آية السيف لما يزيد على المائة وخمسين آية حتى ذهب بعضهم إلى أنها أكثر آية حصل ادعى أنها نسخت آيات من القرآن الكريم[5].

وواقع الأمر أنها نزلت في فريق خاص من المشركين، نقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخانوه؛ فأعلن سبحانه وتعالى براءته من عهدهم وأمهلهم أربعة أشهر من يوم الحج ليتحركوا بحرية ومن ثم يحددون

---

1 – تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر ابن كثير، بيروت: دار ابن حزم، 2012م، ص 864.

2 – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق أبن عطية، تحقيق: عبد السلام الشافي، بيروت: دار الكتب العلمية، 2001م، ج3،ص8.

3 – نظرية السلم والحرب في القرآن الكريم آيات القتل والقتال في سورة التوبة نموذجا، مجلة العلوم الإسلامية، محمد شيبان، المجلد 2، العدد 5، 30سبتمبر 2019م، على الرابط الإلكتروني: آية السيف وفلسفة الجهاد في الإسلام رؤية نقدية، إحسان الأمين، مجلة مداد الآداب، الجامعة العراقية، العدد 19، ص 45.

4 – التفسير الكبير، مرجع سابق، ج16، ص 200.

5 – آية السيف وأثرها في علم النسخ، إبراهيم النجار، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، الجزء 4، العدد 8، 2010/ على الرابط:

https://www.iasj.net/iasj?func=fulltext&aId=39985

موقفهم، وهؤلاء الخونة هم أئمة الكفر الذين لا عهد لهم، فمن المستغرب محاولة بعض العلماء هدم أحكام مائة وأربع عشر آية تتناول سماحة الإسلام بهذه الآية المخصوصة[1].

وذكر النجار أن أقوال بعض العلماء في آية السيف من أغرب الأقوال وأعجبها فبعد أن نسخت كل هذا العدد من الآيات، قيل بانتساخها بما بعدها فصار الناسخ منسوخًا بل ذهب البعض إلى جعل صدر آية السيف منسوخًا بآخرها فنسخ الناسخ نفسه ثم نسخ بغيره[2].

فهي آية يُعمل بها في ظروف عدوان وخيانة وقد أُغلقت كل الأساليب السلمية التي سار عليها النبي عليه الصلاة والسلام مع أئمة الكفر من العهود والمواثيق فنقضوها وخادعوا وخانوا، فكان لابد من منطق الحرب المحكومة بالتقوى وتحقيق العدل.

لقد ترتب على إساءة فهم وتأويل هذه الآية من سورة التوبة وغيرها ؛ اتهام دين السماحة والسلام بأنه دين السيف والعنف، كما أدى ذلك إلى ليّ أعناق النصوص القرآنية الداعية إلى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتقديمها وكأنها تخاطب المسلمين في مرحلة الضعف، فإذا ما تغيرت حالة الضعف إلى القوة ؛ كان استعمال العنف والقوة هو المنطق الغالب. وهنا وجد الكثير من المغالين والمتطرفين ضالتهم في التبرير والتسويق لتأويلاتهم المنحرفة وسلوكياتهم المسيئة.

يقول العلواني رحمه الله شارحًا ما حصل حول دعوى النسخ في الآية إلى ضعف الصلة بالقرآن المجيد وكثرة الاعتماد على الأخبار والآثار المتعلقة بالنسخ:" بدأت الصلة بالقرآن المجيد تضعف لتحل محلّها الأخبار والآثار المتعلقة بالنسخ والناسخ والمنسوخ ليدّعوا أن آية السيف ...قد نسخت آيات المسالمة والمجادلة بالتي هي أحسن والحوار ولم يعد لدينا إلا السيف نشهره في وجوه الآخرين لنحملهم على الإسلام أو إعطاء الجزية أو القتال، وقد أخّر ذلك انتشار الإسلام في شعوب كثيرة"[3].

---

1 – بتصرف بسيط عن: النسخ في القرآن العظيم رؤية نقدية، جمال الدين شريف، جلة الجزيرة تفكر، مجلد 9، العدد 1، 2، 2008م. وانظر كذلك: نحو موقف قرآني من النسخ، طه جابر العلواني، مصر، دار الشروق، 2006م، مص 53. وكذلك قضية المنهجية في الفكر الإسلامي، عبد الحميد ابو سليمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص 9.

2 – آية السيف وأثرها في علم النسخ، مرجع سابق، ص 36

3 – من أدب الاختلاف إلى نبذ الخلاف، طه جابر العلواني، على الرابط الإلكتروني:

وقد تصدى عدد من المفكرين لخطورة انتشار هذا النوع من التأويلات لتتحول إلى أرضية صلبة يقف عليها متشددون تمكنّوا من الإساءة إلى الإسلام وتشويه صورة تعاليمه العظيمة.

يقول العقاد (رحمه الله): «فالعلاقة بين الناس في دستور الإسلام علاقة سلم، حتى يضطروا إلى الحرب؛ دفاعا عن أنفسهم، أو اتقاء لهجوم تكون المبادرة فيه ضربا من الدفاع فالحرب يومئذ واجبة على المسلم وجوبا لا هوادة فيه، وهو مع وجوبها مأمور بأن يكتفي من الحرب بالقدر الذي يكفل له دفع الأذى...وفي الجزيرة العربية لم تقع حرب بين المسلمين وقبائلها إلا أن تكون حرب دفاع أو مبادرة إلى اتقاء الهجوم المبيّت في أرض تلك القبائل».[1]

فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يرفع سيفًا على مخالفيه إلا إذا كان منهم اعتداء بالفعل أو تربص بالاعتداء، فلقد عامل كفار قريش بمقتضى قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: 126]، فلما آذوا أصحابه بكل صنوف الأذى وهمّوا بقتله صلى الله عليه وسلم، خرج من بيته مهاجرًا، وكان أصحابه قد هاجروا فرارًا بدينهم، حينئذ جاء الإذن بالقتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾، وكان القتال مع قريش وحدها كما في غزوة بدر وأحد، فلما جمعوا الجموع من العرب في غزوة الأحزاب كان لا بد من القتال، ولذا نزل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ والنبي صلى الله عليه وسلم عندما سكن المدينة لم يستبح دماء اليهود، بل سالمهم وعقد معهم عقد جوار، ولم يعزم على نقضه واستمر على عهده نحو ثلاث سنين بعد غزوة بدر الكبرى[2].

=

https://books.google.com.bh/books/about/%D9%85%D9%86_%D8%A3%D8%AF%D8%A8_%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%AE%D8%AA%D9%84%D8%A7%D9%81_%D8%A7%D9%84%D9%89_%D9%86%D8%A8.html?id=sqDNAQAACAAJ&redir_esc=y

1 – حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس العقاد، بيروت: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص 228 و 229

2 – قراءة مقاصدية في جهاد النبي صلى الله عليه وسلم، رقية العلواني، مرجع سابق، ص 45.

وقد انتهج الرسول صلى الله عليه وسلم مبادئ لم تخرج عن قيمة العدالة التي أقيمت كل العلاقات الإنسانية في الإسلام عليها، فهي الميزان المستقيم الذي يحدد العلاقات بين الناس في حال السِلم، وحال الحرب على السواء. وقيمة التسامح التي تكرّس إشاعة الود والتراحم بين بني البشر لتنقية جوّ المجتمع من الشحناء والتناحر العنصري البغيض.

ففي السِلم يكون حسن الجوار قائمًا على العدل، وفي الحرب يكون الباعث عليها هو العدل، والعدالة حق للأعداء كما هي حق للأولياء، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[سورة المائدة:8].

ومن صور العدالة في الحرب، التمسك بالفضيلة وهو من أساس العلاقات الإنسانية في الإسلام، سواء أكانت بين الآحاد أم كانت بين الجماعات، وسواء أكانت العلاقة في حال الحرب أم في حال السلم؛ لأن قانون الأخلاق قانون عام، والفضيلة حق لكل إنسان، يستحقها بمقتضى إنسانيته، وقد تقرر ذلك في المبادئ الإسلامية التي تطبق على جميع أهل الأرض، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[سورة الحجرات:13].

وأعظم ما يقترن بالجهاد؛ خشية أن تندفع النفوس في حال احتدام القتال إلى ما يخالف ذلك المبدأ العام، قال عز وجل: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[سورة البقرة:194].

وإذا كان هذا النص القرآني قد أقر ردّ الاعتداء بمثله، إلا أنه أمر بالتقوى، وهي أن يجعل المؤمن بينه وبين غضب الله وقاية. فإذا انتهك العدو حرمات الفضيلة، فإن المؤمن لا ينتهك، وبعبارة عامة: لا يصح للمسلم أن يجاري الأعداء في مآثمهم، وما يرتكبونه في الحروب ضد الفضيلة الإنسانية العامة.

وأكد النبي الكريم هذه المعاني طوال فترة حياته قولًا وعملًا.

وإن تكريم الإنسان في ضوء القرآن لا يرتبط بما يدين به الإنسان فقط، ولكن يرتبط بإنسانيته، بآدميته وكونه من بني آدم عليه السلام. ومن الأمور التي ينبغي الاهتمام بها، ضرورة التفرقة بين خطاب القرآن حين يوجهه لدولة وحين يوجهه لفرد. وسورة التوبة في غالب خطاباتها نزلت تخاطب الدولة والفرد في دولة.

فالسورة في مجملها تخاطب الأمة، التي أقامت حدود القرآن وقواعده في حياتها ونظمها وتشريعاتها، والفارق بين خطاب الفرد وخطاب الجماعة شاسع. من هنا انتقد القرآن بعض الأعراب في بقائهم على البداوة التي تجعل منهم يعيشون حياة بلا نظام ولا قواعد حضارية تحترم فيها عهودها ومواثيقها، فوصفهم بقوله: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [سورة الحجرات:14]. وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [سورة التوبة:98].

لقد أحدث القرآن نقلة حضارية حقيقية من خلال تلك المحاولات المستمرة طوال فترة الرسالة لإخضاعهم للنظام العادل القائم على المساواة والحرية واحترام حقوق الغير.

وكانت حينها بعض القبائل العربية من خارج مكة تشكل عوامل ضغط وتمرد وعصيان وخروج على نظام وتشريعات الإسلام العظيمة التي جاء نبينا – عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام – لإرسائها في المدينة، في المجتمع الأول، وبقيت تلك القبائل بؤرًا للعصيان والتمرد على المسلمين بشكل جيوب تهديد للمسلمين، خاصة وأن المسلمين في تلك الفترة التي نزلت فيها آيات سورة التوبة كانوا يتعرضون في ذات الوقت إلى تهديدات مختلفة من قبل دولة الروم.

ونزلت سورة التوبة العظيمة في نفس الفترة التي حدثت فيها غزوة تبوك وجهز فيها المسلمون جيش العسرة، ردًا على الروم ودولتهم الذين جهزوا جيشًا يريدون أن يهاجموا به النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة. إلا أنهم بمجرد ما سمعوا بتجهيز وخروج جيش العسرة بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم، تراجعوا.

كما كانت بعض القبائل العربية الساكنة بين الحجاز والشام، تشكّل تهديدا آخر للمسلمين. كلما وجدوا فرصة لنقض العهود والمواثيق، نقضوها، فإذا ما رأوا أن المسلمين قد شغلوا بشيء نقضوا العهود والعقود، وأغاروا عليهم.

من هنا نزلت سورة التوبة بهذا الخطاب الحازم بتأسيس نظام عالمي يخضع له الجميع، قائم على العدل وحماية الحقوق لا بإكراه الناس على الدخول في دين أنقذ البشرية من هدر الحقوق ومصادرة الحريات.

لقد نزلت السورة والجزيرة العربية وجيرانها لم يعرفوا نظامًا تشريعيًّا من قبل يخضعون لأوامره. ولم تكن الإشكالية في سنّ التشريعات فحسب بل في تطبيقها وحمايتها من عبث العابثين ومن سطوة الظالمين وظلم الجائرين وبغي المعتدين.

من هنا جاءت ومنذ أول آية فيها بإعلان البراءة من كل نقض لهذه التشريعات والعودة إلى حياة العبث والجاهلية: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ . لقد أراد هؤلاء الذين نقضوا العهود أن تبقى الحياة في الجزيرة العربية حلبة للصراعات والنزاعات، وميدانًا للشقاق والصراع.

ولأن القرآن العظيم رسالة للبشرية في كل زمان ومكان، جاء بهذه التفاصيل التي تعلّم البشرية آلية الحزم مع من يُعرف بتجار الحروب والفتن والنزاعات وافتعال الصراعات الدامية بين البشر.

لقد جاءت هذه الآيات ردًّا على كل تلك المحاولات التخريبية التدميرية والمناوشات والتمردات التي أرادت بعض القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية أن تستمر وتبقى تهدد كيان المجتمع المسلم والجزيرة بأسرها!

وقد أدرك العالم الحديث متأخرًا حاجته لصيانة مثل هذه الحقوق فكانت منظمة الأمم المتحدة 1945م التي تؤكد وثائقها أن لها هدفين رئيسيين هما السَّلامُ والكرامةُ الإنسانية. فإذا اندلع قتالٌ بين قطرين أو أكثر، في أي مكان، يجوز أن يُطلَب من الأمم المتحدة التدخل لمحاولة وقفه. وبعد توقف القتال يجوز للأمم المتحدة القيام بوضع التدابير اللازمة لمنع تكراره مرة أخرى. ولكن الأمم المتحدة تحاول قبل كلِّ شيء معالجة المشاكل والنزاعات قبل أن تتفاقم وتؤدي للقتال. ومن أهداف الأمم المتحدة الأساسية تحديد أسباب الحرب لإيجاد الوسائل الكفيلة بإزالتها[1].

ومع الفوارق الشاسعة بين الأمرين، إلا أن مبدأ قيام نظام عالمي يخضع له الجميع، غاية تصبو إليها العقول السليمة وتبذل في سبيلها العظيم من الأمور. وما زال العالم يطالب بإعادة الهيبة والقوة لهذه المنظمة وتفعيل دورها الذي أنشئت لأجله في حفظ الأمن والسلام في العالم والاحتكام إلى القوانين واحترام الآخر، إلا أن الانتقادات الواردة حول ضعف حزمها في التعامل مع الخروقات والاعتداءات أكثر من أن تُعد.

إن ما قام به النبي صلى الله عليه وسلم من خلال تطبيقه للآيات القرآنية العظيمة في هذه السورة المباركة وغيرها ؛ أعظم دليل على عالمية رسالة القرآن وأسبقيتها في بسط السلام ونشر الأمن والعدل وإيقاف العابثين بهذه القيم عن المضي في الفساد والدمار لتحقيق مصالهم الآنية.

1 – حول نشأة الأمم المتحدة، انظر موقعها على الرابط:

https://www.un.org/ar/sections/history/history-united-nations/index.html

كما **نزلت سورة التوبة العظيمة بحظر الحرب لا بتشريع الحروب**، فقد أعطى القرآن مُهلة لهؤلاء أربعة أشهر للتراجع عن العدوان والفساد، رغم ابتداء هؤلاء بالاعتداء. وهذا قانون ما كانت المجتمعات تعرفه، فقد اعتادت البشرية قبل الإسلام على عنصر المفاجأة في الحروب، فكانت القبائل تباغت بعضها البعض، ولا تغير إلا في الليل على بعضها البعض، فتقتل وتحرق وتنهب وتأسر، فجاء القرآن فمنع ذلك منعًا باتًّا.

" فنبّينا عليه الصلاة والسلام، حين غزا قريشا وأحلافهم من اليهود والنصارى وأهل الأوثان، إنما **غزاهم ليُلزِمهم حدودهم، ويمحو ظلمهم وطغيانهم، ويخرج المستضعفين من بؤسهم وشقائهم، وينقلهم من أجواء الظلم والاضطهاد إلى أجواء الحرية والكرامة**، حيث يكون كل إنسان آمنا في نفسه، وآمنا في سربه، حرّا في إرادته وطموحاته، وحرّا في سلوكه وتصرفاته. وتلك هي أغراض الجهاد والقتال في دين الله"[1].

وكانت تلك المناسبة التي أرسل فيها النبي صلى الله عليه وسلم عليًا رضي الله عنه إلى مكة، ليحُج البيت، وينادي في الناس ألا يحجنّ بالبيت عريان ولا مشرك.[2]

﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾

وتبقى التقوى حاضرة بقوة في هذا السورة المباركة لموقعها في قواعد النظام العالمي الجديد.

فالمسألة ليست كما يظن البعض تتعلق بإكراه الناس على الدخول في الدين، فحرية الاعتقاد مكفولة للجميع، لا تُمس لا في حال الحرب ولا في حال السِلم: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [سورة البقرة:256].

---

1 - لا إكراه في الدين، سبحاني، مرجع سابق، ص 19-20.

2- في الصحيحين - البخاري 4655 واللفظ له، مسلم 1347 - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى، أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، قال حميد بن عبد الرحمن: ثم أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب، وأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذن معنا علي يوم النحر في أهل منى ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

أما قوله سبحانه: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ فهذا ليس لأنهم مشركون، ولكنهم حاربوا وتمردوا وشقوا عصا الطاعة والأمان الذي كانت تعيش فيه الجزيرة العربية آنذاك مع المسلمين، أرادوا أن تبقى وتكون تلك الجزيرة محلًّا وميدانًا للصراع والنزاع والظلم والطغيان وإهانة الكرامة الإنسانية وقتلها.

"ومن الخطأ الفاحش أن نقول: إن نبيّنا عليه الصلاة والسلام أكره العرب على قبول الإسلام، وقاتلهم ولم يرض منهم إلاّ به، فنّبينا عليه الصلاة والسلام لم يكره أبدا، ولم يكره أحدًا على قبول الإسلام! والغزوات التي غزاها عليه السلام، لم يغزها لأجل إكراه الناس على قبول الإسلام، وإنما غزاها نصحًا لهم، ورحمة بهم، وحفاظًا على حريتهم وكرامتهم، وتطهيرا لأوضاعهم من الظلم والفساد. غزاها حتى يقضي على الشر والفساد الذي عمّ وطمّ، وتفاقم أمره، واستشرى بين الناس. غزاها حتى يقمع الظلم والطغيان الذي بلغ سيله الزبى، وكان يهدد سلامة المجتمع. غزاها حتى يعيد إلى الناس حريتهم التي سُلِبوها منذ أزمان وأزمان، فقد كان يأكل القوي منهم الضعيف، وكان يستعبد الغني منهم الفقير"[1].

والذي يؤكد هذه الحقائق ؛ الآية التي جاءت بعدها وفيها خطاب للفرد: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة التوبة:6]. إنها الرسالة العظيمة التي أراد القرآن لها أن تصل لكل البشر بحرية تامة وشعور بالأمن يليق بتلك الحرية التي جاء القرآن بتعاليمه لتحقيقها واقعًا معاشًا. فالخطاب تغير لتغير المخاطب به. لقد حذّر القرآن أتباعه من الغدر أشد تحذير.

ثم جاءت مباشرة بعدها هذه الآية: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ **التي تأمر بمواجهة** الكيان المنْشَق المتمَرد العَصِّي على النظام الناقض للعهود الخارج على المواثيق كما سبق ذكره.

لقد شكّلت هذه الآيات العظيمة نصوصًا للإطار العام لهذا النظام الذي وقف في وجهه بعض القبائل العربية في الجزيرة العربية، فنقضوا العهود.

---

1 – لا إكراه في الدين، مرجع سابق، ص 15 وما بعدها.

ومما يلفت نظر المتدبّرين لهذا الآيات العظيمة في السورة ؛ تذكير وتأكيد القرآن لقيمة التقوى الحاكمة لتصرفات المسلمين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. فالموضع الأول عند الآية الرابعة في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة التوبة:4] والموضع الثاني عند الآية السابعة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة التوبة:7]. والقرآن يؤكد من خلال قيمة التقوى ؛ أهمية الانضباط الذاتي باعتبار أن القوة قد تكون مدعاة للظلم والاعتداء، فتأتي التقوى تحكمها وتمنع أي اعتداء. من هنا كان طغيان القوة من أكبر الأخطار التي تحدق بالبشرية اليوم. فالقوة الطاغية مدعاة للظلم والبغي، ولا شيء يُلجمها كالتقوى.

ومن الآيات العظيمة في السورة التي تبيّن هذه القيم: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ فالقيادات المنحرفة الفاسدة لابد من وقف فسادها حتى لا تجر الشعوب والأمم والمجتمعات والناس إلى صراعات دامية تُسفك فيها الدماء البريئة.

من هنا كان الجهاد في القرآن مقيدًا بأن يكون في سبيل الله: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وليس في سبيل مصالح شخصية، ولا في سبيل فرض هيمنة على شعوب العالم أو مصادرة خيراتهم. وسبيل الله لا يكون شعارًا فارغًا دون أن يصدّقه واقع عادل يقتص فيه الإنسان لغيره من نفسه.

من هنا يتواصل الحديث عن التوبة بعد كل طائفة من التعاليم والتشريعات ليبقى الباب مفتوحًا أمام الجميع، وللدلالة على أن تعاليم هذا الكتاب ليست مُثلًا أفلاطونية بعيدة عن الواقع وغارقة في المثالية، ولكنها تخاطب بشرًا قد يصدر عنهم الخطأ والتقصير: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة:27] وفيها من الترغيب للإنسان بالعودة إلى فطرته، ونبذ الشوائب العالقة بها.

الخاتمة والتوصيات:

تناولت هذه الدراسة واحدة من الإشكاليات المتصلة بالكشف عن مقاصد سُور القرآن الكريم، التي تسهم في تمكين المجتهد من قراءة النصوص وتفسيرها دون خروج عن هدي القرآن الكريم ومقاصده الأساسية الدائرة

حول التوحيد والتزكية والعمران وما يندرج تحتها. وقد اهتم العديد من المفسرين في القديم والحديث بدراسة مقاصد السور القرآنية أو ما أطلق عليه بعضهم الوحدة الموضوعية للسورة، وأدلى كل منهم بدلوه، خاصة وأن تحديد مقصد السورة أمر اجتهادي تختلف فيه العقول وتتفاوت فيه المدارك. وتؤكد الدراسة أهمية السير وفق الآليات والمسالك التي تسهم في التوصل إلى استنباط اجتهادي سديد لمقاصد السورة ومنها؛ الاهتمام بأسماء السورة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، والبحث عن البيئة والظروف التي صاحبت تنّزل السورة، وأوجّه التناسبات بين السور المتجاولة وآياتها. وقد تناولت الدراسة سورة التوبة لتطبيق هذه الآليات ومن ثم توصلت إلى أن مقصد سورة التوبة الجامع هو التوبة لكل الخلق. وقد تأكد ذكرها في السورة في كثير من الموضوعات والمواضع لبيان أهمية فتح باب التوبة أمام الناس، ودور المؤمنين برسالة القرآن في حملها وتعزيز قيمها لإقامة نظام عالمي قائم على العدالة والكرامة الإنسانية. وقد أوضحت الدراسة أهمية استنباط هذا المقصد وأثره في الذبّ عن سماحة الإسلام وعدالة تشريعاته وإنسانيتها، ودحض الشبهات والأباطيل التي اعتمد أصحابها آليات بتر النصوص عن سياقاتها لتمرير تهمة إكراه الناس على الدخول في الإسلام تحت وطأة القتال أو الجزية وخاصة في سورة التوبة، وما اصطلح عليه الكثيرون آية السيف. وأكدت الدراسة أن تلك الأقوال تُناقض صريح الآيات القرآنية التي جاءت تؤكد حرية الاعتقاد وسماحة الإسلام وبيان مفهوم ومقاصد الجهاد وحدوده ومقاصده. وتوصي الدراسة الباحثين بالاهتمام بعلم مقاصد السور القرآنية وأثرها في ضبط عمليات الفهم والتأويل والتفسير، والكشف عن نظم القرآن القيمي ورسالته العظيمة للبشرية.

المصادر والمراجع:

- **أثر القراءة العضين وتداعياتها في فهم السنة النبوية**. رقية طه العلواني. بحث منشور في مجلة كلية الدراسات العربية والإسلامية، فبراير 2005م.
- **أحكام الجهاد في سورتي الأنفال والتوبة دراسة موضوعية مقارنة**. محاسن الصاحب. رسالة ماجستير، جامعة الخليل، 2014م.
- **الإشراف على مذاهب العلماء**. أبو بكر محمد بن إبراهيم ابن المنذر. الإمارات العربية المتحدة: مكتبة مكة الثقافية، 1425هـ - 2004م.

- **أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم**، عبدالله شحاته. مصر :الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976م
- **أهداف ومقاصد وموضوعات سورة التوبة دراسة تحليلية**. حسن الخطيب. غزة: الجامعة الإسلامية، 2008م .
- **آية السيف وفلسفة الجهاد في الإسلام رؤية نقدية**. إحسان الأمين. مجلة مداد الآداب، العدد 19. أبريل 2020م.
- **آية السيف وأثرها في علم النسخ**. إبراهيم النجار.مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، الجزء 4، العدد 8، 2010/ على الرابط:
- https://www.iasj.net/iasj?func=fulltext&aId=39985
- **البرهان في علوم القرآن**. بدر الدين الزركشي. بيروت: دار المعرفة 1988م
- **البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران**. محمد عناية الله سبحاني. عمان: دار عمار للنشر والتوزيع، 1414هـ.
- **التحبير في علم التفسير**. جلال الدين السيوطي. بيروت: الكتب العلمية، 1988م
- **التحرير والتنوير**. محمد الطاهر بن عاشور. تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م
- **التربية الجهادية في الإسلام من خلال سورة الأنفال**. أحمد تالي إدريس. رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة أم القرى، 1990م.
- **تدبّر سورة التوبة**، رقية طه العلواني.

https://www.youtube.com/watch?v=XoZEunEHx8U

- **تفسير القرآن**. أبو المظفر السمعاني. تحقيق: ياسر أبو تيميم و غنيم أبو بلال، دار الوطن للنشر، 1997م.
- **التفسير الحديث**. محمد عزة دروزة. مصر: دار إحياء الكتب العربية،1383هـ.
- **تفسير القرآن الكريم**. محمود شلتوت. لبنان: دار الشروق، ط12، 2004م.

- **التفسير الكبير**. فخر الدين الرازي. دار الفكر بيروت، 1401-1981م.
- **تفسير ابن كثير**. إسماعيل بن عمر ابن كثير. بيروت: دار ابن حزم، 2012م.
- **تفسير المنار**. محمد رشيد رضا. مصر: الهيئة المصرية للكتاب، 1990م.
- **التناسب السياقي في القرآن الكريم**. فضيلة عظمي. عمان: مركز الكتاب الأكاديمي، 2017م
- **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه**. عباس العقاد. بيروت: طبعة مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. 2007م.
- **دراسة تحليلية في مقاصد سورة النمل** . رقية طه العلواني. بحث غير منشور . 2020م
- **دلائل النظام**. عبدالحميد الفراهي. بعناية السيد بدر الدين الإصلاحي، الهند: الدائرة الحميدية 1388هـ- 1968م .
- **دلالة أسماء السور القرآنية على محاورها وموضوعاتها**. عمر عرفات. بيروت: مؤسسة الرسالة ناشرون، 2018م
- **الرحيق المختوم**. صفي الرحمن المباركفوري. مصر: دار الوفاء. 2004م.
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي . بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ
- **سنن الترمذي**. الترمذي. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية، 1395هـ - 1975م.
- **صحيح البخاري**. البخاري. المكتبة السلفية، القاهرة، 1400هـ.
- **صحيح ابن حبان**. ابن حبان. مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الثانية، 1414هـ.
- **العلاقات الدولية في الإسلام**. وهبة الزحيلي. بيروت، مؤسسة الرسالة، 1981م.
- **العواصم من الفتن في سورة الكهف**. عبدالحميد طهماز. دمشق: دار القلم، 1987م.

- **قراءة في آية الهجرة في سورة التوبة دراسة تحليلية**. مروان الأعظمي.،مجلة الجامعة العراقية، العدد 26، 2011م

- **قراءة مقاصدية في جهاد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم مقصد العدالة أنموذجًا**. رقية طه العلواني. مجلة الشهاب، جامعة الوادي، الجزائر، المجلد الثالث، العدد 2، يونيو 2017م، www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/391/3/2/26016

- **لا إكراه في الدين**. محمد عناية الله سبحاني. عمان: دار عمار للنشر والتوزيع، 2009م.

- **مباحث في التفسير الموضوعي**. مصطفى مسلم. دمشق: دار القلم، الطبعة الثالثة، 2000م

- **مدخل إلى القرآن الكريم**. محمد عبدالله دراز. الكويت: دار القلم، 1984م

- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. ابن عطية. تحقيق: عبد السلا مالشافي، بيروت: دار الكتب العلمية، 2001م

- **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**. برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي . تحقيق: الدكتور عبد السميع محمد أحمد حسنين، الرياض: دار المعارف، الرياض 1408هـ/1987م

- **معالم الجهاد في سورة التوبة**. صفوان عبدالله. رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 2000م

- **من أدب الاختلاف إلى نبذ الخلاف**. طه جابر العلواني.

- **مواطن التوبة في سورة التوبة دراسة موضوعية**. إيناس فليح خلاوي. مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، المجلد الثاني، العدد السابع، 2010م

- **موسوعة خصائص السور القرآنية**. جعفر شرف الدين. تحقيق: عبدالعزيز التويجري، بيروت: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، 1420هـ

- **نحو موقف قرآني من النسخ**. طه جابر العلواني. مصر: دار الشروق. 2006م

- **النسخ في القرآن العظيم رؤية نقدية**. مال الدين شريف. مجلة الجزيرة تفكر، مجلد 9، العدد 1، 2، 2008م.

- **نظرية السلم والحرب في القرآن الكريم آيات القتل والقتال في سورة التوبة نموذجا**، محمد عبدالله شيبان. مجلة العلوم الإسلامية، المجلد 2، العدد 5، 30سبتمبر 2019م.
- **الوحدة البنائية للقرآن المجيد. طه جابر العلواني**. مصر: مكتبة الشروق الدولية، 2006م